البحث عن الهوية في شعر ابي نواس

د. ذكرى محي الدين الجبوري

ابو نواس شاعر من شعراء العصر العباسي الاول ورائد من رواد التجديد في ذلك العصر كان لنتاجه الشعري وقعاً اثار جدلاً نقدياً واسعاً في كل العصور.

الذي يعنينا في هذا البحث هو بحثه عن تلك الهوية الجمعية من خلال ديوان شعره والهوية، مصطلح يستخدم لوصف مفهوم الشخص وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات (كالهوية الوطنية والثقافية)، وهي مجمل السمات التي تميز الشيء عن غيره او شخصاً عن غيره او مجموعة عن غيرها وكل منا يحمل عدداً من العناصر في هويته، صفاته وجنسيته وعمره وتأريخ ميلاده.

اسمه وكنيته:

الحسن بن هانيء بن عبد الأول بن الصُباح مولى الجراح بن عبد الله بن جعادة بن أفلح بن الحارث بن دوة بن حدقة بن مظة بن سهم بن الحكم بن سُعد العشيرة بن مالك.(١)

كنيته:

أبو نُواس،سُئل عن كنيته، ما أراد بها، ومن كناه بها، وهل هو (نوُاس) أو (نوَاس)؟

فقال: نُواس، وهو اسم من اسماء جبال الملوك حمير، والجبل الذي لهم، يُقال له نوُاس"(٢)

وكانت كنيته الأصلية. ابا عليَ، وكان يفضل أن يلقَب بأبى نوُاس، لشهرته، وأنه من اسماء مُلوك اليمن ومن اسمائهم ايضاً: ذو نُواس (٣)

مولده:

اختلف في مولد أبي نواس، فقيل: كان مولُده، في عام ست وثلاثين ومائة، وقيل عام خمس وأربعين ؟ وقيل: عام ثمان وأربعين وقيل: عام تسع وأربعين.

واختلف في موته، فقيل توفي عام خمس وتسعين ومائة، وقيل:عام تسع وتسعين وقيل مات قبل دخول المأمون بغداد بثمان اعوام، وكان عمره تسعاً وخمسين عام.

عصر الشاعر:

امتد التقسيم التاريخي للعصر العباسي حقبة طويلة بين عام ١٣٢ هـ ولغاية عام ٦٥٦ هـ ، ودرج مؤرخو أدب هذا العصر على تقسيمه داخلياً الى عدد من العصور، ودراسة كل عصر منها دراسة مستقلة، على ان مبررات هذا التقسيم الذي يرتبط باحداث تاريخية او تغيرات في بعض مظاهر الحكم لم تعد مقنعة لان النقلة الكبيرة التي احدثتها الثورة العباسية في حياة العرب والمجتمع الاسلامي بعامة ظلت تمثل الاطار العام لحياة الدولة الجديد، الذي يستوعب كل ما بداخله من تنوع، دون ان يصيبه تغير جذري او جوهري.

لكن كل هذه المتغيرات لم تؤثر او تحدث انقلاباً حقيقاً في وجوه هذه الحياة بل كانت تحدث نتيجة لالوان الصراع المختلفة (سياسي- ديني- اجتماعي- ثقافي).

ويمكن ان نوصف العصر العباسي، انه عصر معقد بالغ التعقيد ومتداخل في الوقت نفسه تداخلاً مذهلاً وفي بعض الاحيان مربكاً.

والادب الذي كان دائماً اداة التعبير لكل العناصر المتصارعة كان لابد ان تتمثل في حياته صورة هذا التعقيد والتداخل في حياة المجتمع، ومن ثم فان فهم هذا الادب بكل ما يعكس من تناقضات، لا يمكن ان يتم الا في إطار ذلك الصخب الزاخر بصراعات العصر(٤).

الهوية لغةً واصطلاحاً:

هَوِيَّةٌ: مصطلح مشتق من الضمير (هُو).

أما مصطلح (الهو) هو مركب من تكرار هو، فقد تم وضعه كأسم معرف بأل ومعناه (الاتحاد بالذات)

الهُويةَ: البئر البعيدة القعر.

هُويةُ الانسان: حقيقته المطلقة وصفاته الجوهرية(٥).

الهويَّةُ الوطنية: معالمها وخصائصها المميزة وإصالتها.

الهُوية: احساس الفرد بنفسه وفرديته وحفاظه على تكامله وقيمته وسلوكياته وافكاره في مختلف المواقف وتعبيره عن فرديته وعلاقته مع الجماعات.

الهُويّةُ (فلسفياً) حقيقة الشيء او الشخص التي تميزه عن غيره.

الهُويّةُ اصطلاحاً: تمثل الهوية مجمل السمات التي تميز شيئاً عن غيره او شخصاً عن غيره وكل منا يحمل عدد من العناصر في هويته.

وتقسم الهوية الى قسمين الهوية الشخصية والهوية الجمعية (وطنية او قومية) وعناصر الهوية شيء متحرك ديناميكي يمكن ان يبرز احدهما او بعضهما في مرحلة معينة وبعضها الاخر في مرحلة اخرى وهذه العناصر التي تبلور الهوية تدل على ميزات مشتركة ولاسيما الهوية الجمعية تدل ميزات مشتركة أساس لمجموعة من البشر تميزهم عن مجموعات اخرى إذ يتشابه أفراد المجموعة بالميزات الاساس التي كونتهم كمجموعة وربما يختلفون في عناصر أخرى، ولكنها لا تؤثر على كونهم مجموعة، ومن أهم عناصر بلورة الهوية:-

(الوطن، التاريخ، الانتماء الوطني، الارض، اللغة، الحضارة، الثقافة، الطموح)

فما يجمع المجتمع العربي في العصر العباسي هو وجودهم في وطن واحد (مكان) ولهم تأريخ طويل مشترك كمجتمع عربي مسلم (زمان) فضلاً عن الانتماء الوطني المتمثلة بانتمائهم للدولة الاسلامية، اللغة العربية المشتركة، لكن نجد في العصر العباسي هناك عدد لابأس به من الهويات القومية او الوطنية التي تطورت بشكل طبيعي عبر الزمن ونشأت بسبب التغيرات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وتبلورت تيارات عصرية تنادي بنظرة حداثية الى الهوية، وتدعو الى الغاء الهوية الوطنية او القومية، لكن هل نجحت تلك الدعوات والمناداة من خلال التشظي في هوية تلك المرحلة؟ هذا ما سيقوم عليه بحثنا ونرى النتائج من خلاله.

الهوية النواسية

أن تأثير الحضارات وحركة الترجمة واتساع العلوم والمعارف الواردة إلى الدولة العباسية في ظل انفتاحها على الحضارات والمعارف والعلوم الاخرى شهد تحولاً في صورة الفرد.

وأن فهم عملية البحث عن الهوية يعتمد أساساً على نظرة تطورية شاملة، فالتطور الذهني، لا يحصل بمعزل عن العوامل البيئية والثقافية التي تحيط بالفرد (أي العوامل الثقافية والسياسية والاجتماعية التي يتحرك من خلالها. وشهدت هذه العوامل تطوراً وتوسعاً في العصر العباسي.

المكان بوصفه منتجاً لمكونات الهوية الثقافية الوطنية التي يتجاوز فيها دلالته المعجمية إلى تلك الدلالا ت الواسعة في منظومة التكوين الفكري للانسان.

وقد جاء في لسان العرب (مكان) في اصل تقدير الفعل (مفعل) وهو موضع لكينونة الشيء فيه وموضع الشيء، أي المحل الذي يحل فيه ويتموضع والفضاء الذي يحيط به ويحدد موقعه بالقياس الى شيء آخر، وهذه هي الرؤية التي اراد من خلالها أبو نواس يثبت أن الماضي جزء من الحاضر لا يمكن نسيانها لكننا لابد من استحضار دلالات المكان في تعزيز الانتماء إلى ثوابت الهوية الثقافية الوطنية بشكل عام منطلقاً من رؤيتين اساستين.

يقول ابو نواس:-

أيا باكيَ الأطْلالِ غَيَّرَهَا البِلَى،
بكيْتَ بعينٍ لا يَجِفّ لَها غَـرْبُ
أتَنْعَتُ داراً قد عَفَتْ، وتَغَيَّرَتْ،
فإنّي لما سألْتَ من نَعْتِها حرْبُ(٦)

× المكان بوصفه دلالة إنتماء لا يوصفه رقعة جغرافية محصنة يقول:

ألا قوموا إلى الكَرخ
إلى منزلِ خمارِ
إلى صهباءَ كالْمسك
إلى جونةِ عطّارِ
وبستانٍ لهانهرُ
لدى نخل واشجار
فاطعمكم به لحماً
من الوحش واطهار
وإنْ أحببتمُ لهواً
أتيناكمْ بزمار(٧)

فالأنا تتحدى عبر الأخر من خلال معطيات الحاضر وحدها بل يوظف فيها أيضاً عناصر هي في الاحوال جميعها تنتمي إلى دائرة (الآخر) مافيه حاضر ومستقبله، نوعاً من الانتماء(٨) من خلال دعوة اصحابه الى مجالس اللهو والشراب.

ثانياً: المكان يوصفه منتجاً لمكونات الهوية الثقافية الوطنية وارتباط الانسان بالمكان بوصفه تعبيراً عن الانتماء للمكونات المادية والمعنوية للمكان، وهذا الانتماء هو احد اهم مرتكزات تشكيل هوية الانسان، وتتجد في حزمة من الدلالات (الاطمئنان، الراحة، الحب، الحماية) وعلى سبيل المثال نذكر قوله:

يـا ليلة بالكرخ كم لـذة
سيقت إلينا ليلة الكرخ
سقيتها صهباء مشمولة
كريمة الجديـن والسنخ
سلافة، تضحك في كأسها
عذراء، صانوها عن الطبخ(٩)

وقوله حين علم ببيع حبيبته الجارية جنان من مواليها ورحيلها

أمّا الدّيارُ ، فقلّما لَبثُوا بهَا
بينَ اسْتباقِ العيسِ بالرُّكْبانِ
وضعُوا سياطَ الشوقِ في أعناقِها
حَتّى اطّلعْنَ بهمْ عن الأَوْطانِ(١٠)

وقوله،

أبصرْتُ في بَغدادَ رُوميّهْ
تَقصُرُ عَنها كلّ أمْنِيّهْ
قصريّةُ الطّرْفِ، شآميّةُ الـ
ـخَلوَةِ ، في نَكْهَةِ زَنجِيّة(١١)

وقوله

حيّ الديار، إذ الزمان زمان
وإذ الشباك لنا حرى ومعانُ
حبذاسفوان من متربع
ولربما جمع الهوى سفوان
واذا مررت على الديار مسلماً
فلغير دار اميمة الهجران
انا نسبنا، والمناسب ظنة
حتى رميت بنا، وانت حصان(١٢)

ويتشكل هذا البعد الدلالي للمكان (الوطن، الحبيبة، الندماء) عبر السياق الزمني من حياة الانسان بوصف الزمن (البعد الرابع) للمكان، على حد تعبير باختين(١٣)، ضمن جدلية العلاقة التاريخية بينهما يقول:

سقياً لبغداد، وأيامها
اذ دهرنا نطويه بالقصف
مع فتية مثل نجوم الدجى
لم يطبعوا يوماً على خسف
تيجانهم حلم اذا ما سقوا
قد فصصت بالجود والظرف
ومَّد من ابصارهم أشمس
تقصر عنها غايةُ الوصف(١٤)

ووظف ابو نواس معطيات المكان لغرض اظهار تفاعله مع المكان من خلال التفاعل المتنامي بينه وبين المكان الذي لا يعده عاملاً طارئاً في حياته وانما معطى (سيميوطيقي) إذ لم يتوقف حضور المكان على المستوى الحسي فحسب بل تغلغل عميقاً من نفس ابو نواس وكان يؤسس لمسارات في مستويات الذات لديه ليصبح جزءاً حميمياً منه هذا المكان هو (الفسحة او الحيز الذي يحتضن عملية التفاعل بين الانسان والعالم من حوله.

ونلحظ من خلال الشواهد التي اوردناها ان الهوية العربية اصطدمت مع الهويات الاخرى لذا نرى ابو نواس قد يفقد في بعض الاحيان توازنه لتأثره الكبير بالثقافات الاخرى ولا سيما دعواته لنبذ الاطلال يقول:

دَعِ الأَطلالَ تَسفيها الجَنوبُ
وَتُبلي عَهدَ جِدَّتِها الخُطوبُ
وَخَلِّ لِراكِبِ الوَجناءِ أَرضا
تَخُبُّ بِها النَجيبَةُ وَالنَجيبُ
بِلادٌ نَبتُها عُشَرٌ وَطَلحٌ
وَأَكثَرُ صَيدِها ضَبعٌ وَذيبُ
وَلا تَأخُذ عَنِ الأَعرابِ لَهواً
وَلا عَيشاً فَعَيشُهُم جَديبُ
دَعِ الأَلبانَ يَشرَبُها رِجالٌ
رَقيقُ العَيشِ بَينَهُمُ غَريبُ
فَأَطيَبُ مِنهُ صافِيَةٌ شَمولٌ
يَطوفُ بِكَأسِها ساقٍ أَديبُ(١٥)

وقوله:-

أيـا باكيَ الأطلال غيّرها البلى
بكيتَ بعين يجفُّ لها غَربُ
أتـنعتُ دارًا قد عفت، وتغيرت
فإنّى لما سالمتَ من نعتها حربُ
وندمانِ صدقٍ، باكرِ الرّاح سُحرةً
فأضحى، وما منه اللسانُ ولا القلب(١٦)

ومن خلال ما تقدم يمكننا لحظ ما تعرضت له الهوية من تشويه وإنحراف إذ إن تبلور الهوية الحضارية للإمم يكون من خلال عاملين ثقافين متداخلين، هما التعرف عن الذات الحضارية أي ادراك الجواهر المؤسسة لها لغرض إنمائها وتكريسها وما هو عرضي وطارئ قد يكون معطلاً لمسيرتها.

والثاني: التعرف على الآخر بقصد تعامل خلاق معه إذ لا يمكن بلوغ تفاعل ايجابي مع ذات حضارية أخرى دون أدراك لطبائعها العامة، وفهم نقاط ضعفها التأريخية ومواطن عقدها النفسية(١٧)

يقول الدكتور احمد كمال زكي: "مقياس حساسية العصر ترى ان أحداً لم يصور عصره كما صوره ابو نواس، وان أحداً لم يخدم الشعرية كما خدمها هذا الشاعر... كان ابو نواس بما روى عنه وبما نقل من كلامه يعرب عن ولع شديد بالتهتك وعن ولع اشد بمهاجمة العرب"(١٨) واللهجة الهجومية واضحة من خلال الشواهد التي ذكرت، ويقول الدكتور زغلول سلام: وشعرية ابو نواس مع صلتها بشخصيته وحياته وظروفه الخاصة في حياته لا يمكن فصلها عن ظروف حياته ومجتمعه، قد شاعت هذه الروح في عصره، وتجاوب الشاعر معها"(١٩) لذا كان الماضي لدى ابو نواس الحاضر الغائب، لذا فأن "حضور (الماضي) في

عملية التفكير في المستقبل لا يكون حضوراً واعياً دائماً بل في الغالب يكون حضوراً لا واعياً"(٢٠)

يقول:-

دعِ الرّسْمَ الذي دثَرَا،
يقاسي الرّيحَ والمطَرَا
وكنْ رجلاً أضاعَ العلْ
مَ في اللّذّاتِ والخطَرَا
ألمْ ترَ ما بنى كسرَى،
بعازِبِ حَرّةٍ يُلْقَى
مَنَازِهُ بين دجلَةَ والْ
فُرَاتِ تفيّأتْ شجَرَا
بأرْضٍ باعَدَ الرّحْ
مُ عنها الطلحَ والعُشَرَا
ولم يجعل مصَايدَهَا
يَرابيعاً، ولا وَحَرَا(٢١)

أن هذا الحضور الا واعي كان نتيجة "تعاظم للصراع القائم بين تيارات فكرية ودينية وعقائدية محاولة نشر قوميتها ودياناتها "مرتكزة حصرياً على الديانة والقومية ومركزة بشكل محوري على الثقافة واللغة لتأمين الغاء تمايز العرب عن غيرهم من الشعوب الاسلامية(٢٢). وهذا بحد ذاته يشكل أزمة للهوية فضلاً، عن ان الاعلام والشعراء الفحول (الابطال) يعانون من أزمة في هويتهم الشخصية وفقدان لهويتهم العائلية، أن ابو نواس كان يعاني من تضخم صورة الهوية المضطربة من خلال رفض الآخر له سواء كان هذا الاخر ذات بشرية أو مجتمع أو سلطة أو مكان وكثيراً ما كان الخليفة يأمر بسجنه، فسقط في متاهة البحث عن الهوية، فضلاً عن أن انتماءه الاجتماعي ساعد في ذلك نتيجة غياب آلية الدعم الاجتماعي يقول:-

دَعْ عَنكَ لَوْمي فإنّ اللّوْمَ إغْـرَاءُ
وداوني بالّتي كانَتْ هيَ الـدّاءُ
صَفـراءُ لا تَنْـزِلُ الأحـزانُ سَاحَهـا
لَـوْ مَسّـها حَـجَرٌ مَسّتْهُ سَرّاءُ
دارتْ علـى فتْيَـة دانَ الزمـانُ لـهمْ،
فَمـا يُصـيبُهُمُ إلاّ بِما شـاؤوا
لتلكَ أبْـكي ، ولا أبـكي لمنزلـة
كانت تحل بها هنـد واسمـاءُ
حاشا لـدُرّةَ أن تُبْنَى الخيامُ لـها
وَأنْ تَرُوحَ عَلَيْها الإبْـلُ وَالشّاءُ
فقلْ لمنْ يدَّعـي في العلم فلسفةً
حفظْتَ شَيئًا ، وغابَتْ عنك أشيـاءُ
لا تحْظُرالعفوَ إن كنتَ امرَأمحرجًا
فَإنّ حَـظْرَكَهُ في الدّين إزْراءُ(٢٣)

هنا ساهمت هذه العلاقة الاجتماعية بينه وبين ندمائه بمجالس اللهو في تطوره النفسي وفي تطوير مهاراته الاجتماعية وقدمت له دعماً عاطفياً هاماً ويبحث من خلال هذه العلاقة الثقة والتفهم المتبادل والوفاء والشراكة وهذه الصداقة تعزز من التقدير الذاتي ولا سيما صداقته مع الامين الذي بكاه مرُّ البكاء يقول:

طوَى الموتُ ما بيْني وبينَ محمّد
وليسَ لَما تَطْوي المَنيّةُ ناشِرُ
فلا وصْلَ إلا عَبرَةٌ تسْتَديمُهـا
أحاديثُ نفْس، ما لها، الدهرَ، ذاكرُ
وكنتُ عليه أحْذَرُ الموت وحدَهُ،
فلمْ يبْقَ لي شيءٌ عليه أُحاذِرُ
لئن عمرَتْ دُورٌ بمـنْ لا أودّهُ،
فقد عَـمَرَتْ ممَنْ أُحبُّ المقابرُ(٢٤)

لقد تفاعل ابو نواس مع المكان وسخر معطيات ذلك المكان لتحقيق متطلبات العيش (الاطمئنان، الراحة، الحب، الحماية) مستخدماً امكاناته الثقافية والعقلية وموجداً من خلاله حالة من التفاعل المتنامي بينه وبين المكان الذي كان يقضي اوقاته فيه، مع الامين، لذا لا يعد هذا المكان عاملاً طارئاً في حياته وأنما معطى (سيميويقياً) لايتوقف حضوره (أي المكان) على المستوى الحسي وإنما يتغلغل عميقاً في المكان الانساني حافراً مسارات في مستويات الذات لديه ليصبح جزءاً حميمياً منه كونه الفسحة أو الحيز الذي احتضن عملية التفاعل بينه وبين رفيقه، لذا وجد (ان المقابر عمرتبمن يحبه وبرز من خلال هذه الابيات مفهوم (الإنتماء) الذي يبدأ لدى الانسان منذ مرحلة (تسعة أعوام) ويتبلور في مرحلة المراهقة وفي الاحوال كلها لا بد أن نذكر أن هوية الانسان متعددة الاوجه، قد ينجح في الوصول الى الإلتزام الكامل في بعض هذه الاوجه، وقد يحتاج المزيد من الوقت لتحقيق ذاته في أوجه اخرى ولا سيما في مجتمعات الاغتراب حين تتساكن ثقافات واثنيات متعددة ومتداخلة تحيط بالفرد وتدفعه الى احد المسارات التي ذكرناها يقول:

حيّ الديـار إذ الزمان زمـان
وإذ الشباك لنا حرى ومعـانُ
يا حبذا سف،وان من متربـع
ولربما جمع الهوى سفوان
واذا مرَرت على الديار مسلماً
فلـغير دار اميمة الهجـران
إنا نسبنـا، والمنـاسب ظنه
حتى رميت بنا، وانت حصان
لما نزعت عن الغوايه والصبا
وخدت بي الشدنية المذعان(٢٥)

ويقول:

لمن طَلَلٌ لم أُشْجِه، وشَجاني،
وهاجَ الْهَوَى ، أوهاجَهُ لأوانِ

بل ، فازْدَهَتني للصّبا أرْيَحيّة ،
يَمانِيَة ، إنّ السّماحَ يَماني(٢٦)

إذا حقق ابو نواس "هوية الذات عبر تحولات تحكم الفرد في وجوده السيكولوجي والاجتماعي حينما عاين ذاته ليس على نحو نهائي وانما تقص وبحث مستمر على استقلاليته،وجب لكل ذلك أن تعمل الذات على ايجاد مواطئ وقوف تملك من خلالها ملامح وجودها الواقعي والتخيلي لإبراز وحدتها وانسجامها إن كان ذلك متيسراً لها ولعل ذلك يجعل من كل فرد حاملاً ثقل هويته ومترحل من فضاء الى آخر يصارع من الوجود والاعتراف بكل الاشكال الرمزية المتاحة التي تشكل الهوية ذاتها" (٢٧)

إن الهوية إذن، وجود وماهية غير أنها لا تمثل جوهراً ثابتاً ومتعالياً على الزمان والمكان، بل حالة متحركة ومتداخلة، إنها صيرورة بالمعنى المجازي والتأريخي الذي يتيح تضمينها إشكاليات وأزمات هي لازمة لها وعلى العموم، تتحرك الهوية، في هكذا مقام، وعلى ثلاثة دوائر متداخلة ذات مركز واحد:

- الفرد داخل الجماعة الواحدة (قبيلة، طائفة، جماعة مدنية) هو هوية متميزة ومستقلة إنه "إنا" لها "آخر" داخل الجماعة نفسها: "أنا" تضع نفسها في مركز الدائرة حين تكون في مواجهة مع هذا "الاخر".
- والجماعة داخل الأمة: هي كالافراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها "أنا" خاصة بها و"أخر" من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه.
- والشيء نفسه يقال بالنسبة للأمة الواحدة أزاء الامم الاخرى غير انها أكثر تجريداً، واوسع نطاقاً، واكثر قابلية للتعدد والتنوع والاختلاف. فكل هوية تحيل في نفس الوقت إلى ذاتها إي إلى الفردية ((الرقمية)) و ((مبدأ الاختلاف)) والى التوحد بالانظمة الثقافية الكبرى (مبدأ الوحدة)(٢٨)، ويرى باحثون ان هوية اي مجتمع ليست امراً ثابتاً او سرمدياً كما ذهب إلى ذلك المفكر المغربي محمد عابد الجابري، بل يرتبط بالمؤثرات الخارجية وبالتداول العلمي للافكار والثقافات، ويرتبط بالصراع على السلطة فالهوية تتضمن مكونات ثابتة ومتغيرة، ويُعّد الدين واللغة من الثوابت الراسخة، ويبدو ذلك واضح في شعر النواسي، إذ يقول:

اعاذلَ، بعتُ الجهل حيث يباع
وابرزت رأسي ما عليه قناع
نهاني امير المؤمنين عن الصبا
وأمر امير المؤمنين مطاع
ولهو لتأنيب الإمام تركتهُ
وفيه للآه منظر وسماعُ
وريان من ماء الشباب كأنما
يضمأ من ضمر الحشا، ويجاع
قصرت عليه النفس دون مدامة
هي اليوم حربٌ،وهي امس شياع(٢٩)

فهو تارك اللهو وشرب الخمر وكل ما كان يستتر حين يفعله فهو لهذا يكشف رأسه غير خاف لتركه كل ذلك، ويرى ان الخمرة كانت شائعة بين الناس وكانت لهم لهواً ومتاعاً اما اليوم فهي حرب على من يتناولها لانها تسبب له الاذى بالحد وغضب الله عليه لتحريمها فالذات ادركت نفسها كشخص فريد من جهة، ومن جهة اخرى هو عضو من اعضاء مجتمع منتمي له،(٣٠) وهذا جزء من تقدير الذات واحترام الصفات الشخصية وزيادة الاندماج في المجتمع وهذا بحد ذاته تحقيق للهوية الذي جاء عبر تأكيده على الهوية الاسلامية وخضوعه لتعاليم الدين الاسلامي، وفي قصيدة اخرى يقول:

بكيت وما ابكي على دمن قفر
وما بي من عشق فابكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا من نبينا
فذاك الذي اجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا
فلما نهى عنها بكيت على الخمر (٣١)

فهو مجبر وليس مخير بعدم شرب الخمروبكاها أشد البكاء، لانه مسلم ولشده تعلقه بها ولا شك إن الهوية العربية بدأت في التشكل دستورياً بعد هجرة الرسول (ص) ألى يثرب، فضلا عن الدين هناك مكون أخر من مكونات الهوية تجده في شعر ابو نواس، إلا وهو الذاكرة التأريخية المشتركة التي جاءت من خلال الاطلال لكنه لا يبك الطلل كونه طللاً بل يبكي لفراق الاحبة ويوظف الدعاء بالسقيا لغير اماكن (العلياء) و(السند) و(الجرد) بل السقيا لذكريات الاحبة

سَقْياً لِغَيرِ العلْياءِ والسّنَدو
غيرِ أطلالِ مَيَّ بالجرَدِ
وياصبيبَ السّحابِ إن كنتُ قد
جُزْتَ اللّوَى مرّةً فلا تَعُدِ(٣٢)

ويقول

صاحِ ، مالي وللرّسومِ القفارِو
لنَعْتِ المَطيّ والأكْوارِ
شغَلتْني المُدامُ ، والقصْفُ عنها
وقراعُ الطّنْبورِ والأوْتارِ
واستماعي الغِناءَ من كلّ خوْدٍ

ذات دَلّ بـطرفها السّحّـارِ
فدعوني فذاكَ أشْهَى وأحْلى
من سؤالِ التّرابِ والأحْجارِ(٣٣)

ويقول

دعني من الدار ابكيها وارثيها
إذا خلت من حبيب لي مغانيها
درالرواميس تمحو كلما درست
آثـارها ودع الامطار تبكيها
إن كان فيها الذي اهوى اقمت بها
وان عداها فإني سوف اقليها
احق منزلةٍ بالترك منزلةً
تعطلت من هوى علق لأهليها(٣٤)

انطلق ابو نواس من مبدأ التغيير مع الابقاء على الثوابت لذلك شاركت الهوية العربية في منظومة الانتاج الحضاري وبناء التراث العالمي، وبقيت اللغة العربية محافظة على ثباتها الايجابي الذي يُعد مكوناً اساساً للهوية العربية، لذا فأن هوية الانسان تتحقق في البحث المستمر والمعرفة الدائمة، في التعرف على الذات وجوهرها، قوتها وضعفها، سلبياتها وايجابياتها اي من اكون انا كأنسان؟ معرفة الذات هي التجرد التام من صور الانا المزيفة، ومعرفة الذات والهوية هي حقيقة الانسان التي يبحث عنها في اعماقه أو فطرته، لذا نجد ان ابو نواس رفض البكاء والوقوف على الاطلال الدارسة، لكنه لم يرفضها كأرث ثقافي وظل باحثاً عن التجديد ليؤام الحياة الثقافية في عصره.

لقد عاش ابو نواس في ظل صدام ذهنيات عاشت وفق الماضي وصراع العلاقات المستقطبة، وارتبك وعيه الحبيس بين جدران تصوراته الذهنية وشباك يقيناته الشخصية، كما تعثر نظام اشتغال أولياته الادراكية واضطراب بندول انطباعاته الذهنية، لجهة استشفاق العلاقة العضوية الكائنة بين أضلاع مثلث مفهوم الهوية:

(الشخصية الاجتماعية، الهوية الوطنية، المواطنة الحضرية) من خلال خطابات الايدولوجية المتعصبة ، والصراعات السياسية (٣٥)

ولم يألف المجتمع العباسي أنذاك ظاهرة (صراع الهويات التي لم تتبلور ملامحها وتتجد خصائصها الا في مراحل تالية من صيرورته ككيان حضاري ناجز واطار مؤسسي مكتمل، ولكي تغدو الهوية قاعدة او منطلق للصراع بين الافراد والجماعات لا بد ان يكون الوعي بالذات (القومي/السياسي والثقافي/ التاريخي) قد بلغ مستوى من التطور التاريخي والجوهر الفكري(٣٦)، يقول

لنا بالبصرة البيضا
ء ألاف واخوان
بهاليك، مسامح
لهم فضل واحسان
كأن المسجد الجامـ
ـع عند الليل بستان(٣٧)

وفي موضع أخر يشكل عنوانا حضرياً بارزاً، يقول :

صاحِ، مالي وللرّسوم القفارِ
ولنَعْتِ المَطيّ والأكْوارِ
شغَلتْني المُدامُ، والقصْفُ عنها
وقراعُ الطُّنْبورِ والأوْتَارِ
واستماعي الغِناءَ من كلّ خوْدٍ
ذاتِ دَلّ بطرفِها السّحّارِ
فدعوني فذاكَ أشْهَى، وأحْلى
من سؤالِ التّرابِ والأحْجارِ(٣٨)

وقوله

دَعِ الوقوفَ على رَسْمٍ وأطْلالِ
ودمْنَةٍ كسَحيقِ اليَمْنَةِ البالي
وعُجْ بنا نَصْطَبِحْ صَفراءَ، واقدَة
في حُمَرَةِ النارِ، أو رقَّةِ الآلِ
لمْ يُذهبْ الدهرُ عنها حدّ سَوْرَتِها
ولم يَنَلْها الأذَى في دَهرِها الخالي(٣٩)

ان عناصر الذاكرة لا تستمد فاعليتها إلا حين تكون لصيقة بالتاريخ، وان مقومات الوعي لا تبلغ ذروتها إلا حين ترقى لمستوى الرؤية التأريخية في استلهامها لمعطيات الوجود، أدركنا ان كليهما (الذاكرة والوعي) مرشحان للالتقاء على أرضية التاريخ لتنسج عبر تفاعلها حقيقة الواقع وطبيعة المجتمع، وتقدر ما يتطور الوعي وتغتني الذاكرة، بقدر ما يعكس التأريخ فعل الإدارة الانسانية، وهي تطرز قدرتها على البناء وتجسد مصيرها في التواصل(٤٠)،لذا فأن تحقيق الهوية لا يمكن ان يتم إلا اذا وجدت ثقافة قابلة لان تكون قاعدة لإجماع عقلي وهو يتطلب سياسة ثقافية تملك وسائل تحقيقها المادية والمعنوية.

الخاتمة

من خلال ما تقدم نستخلص ان البحث عن الهوية ليس هو (هروباً) من الطفولة ولا الغوص في احلام مستحيلة المنال انه عملية صحية، مرنة، ديناميكية يتعرض من خلالها الفرد الى نماذج سلوكية واخلاقية مختلفة وصولاً الى التزامه في نهاية المطاف بمجموعة من القيم والمناهج تتكيف مع تاريخه الشخصي وتقدم له ارضية صالحة لتحركاته المستقبلية.

صحيح ان عملية البحث عن الهوية لا يخلو من تحديات وصعوبات الا انها

في الوقت نفسه فرصة لاكتساب العمق والنضج والحكمة.

انها مرحلة اختيار ومرحلة ممتعة في الاستشكاف الذاتي على الرغم من الصعوبات التي يواجهها، (باختصار ان البحث عن الهوية ماهو الاعملية استكشاف والتزام) وكما يقول بياجة: ان الاختيار المستمر للافكار الجديدة وتحليلها وربطها بالمعرفة السابقة هو دليل عافية فكرية ونفسية يتميز بها النمو الفكري لدى الانسان على مدى الحياة.

وأراد أبو نواس ان يخلق هوية جديدة بعيداً عن التراكمات السابقة، فثار على الطلل ليقف لدى طلل حضري يؤام البيئة الحضرية ويحمل ثقافة الماضي، طللاً يحاكي ثقافة العصر وهوية تحمل سمات الماضي وحضارة الحاضر.

أن الهوية ليست قصراً يحتاج إلى ديكور ولكنها اخلاق متداخلة من منظومات مختلفة التكوين وهذا ليس غلط اذا وعى الانسان ماهو فيه، فهذه فرصة رائعة ان ينتقي أفضل ما يحتك به من ثقافات.

لكن ان لا ينسى هويته ولا ينسى أن يتأثر تأثيراً ايجابياً بتلك الثقافات.

مسرد المراجع

١- الادب العربي في العصر العباسي ، د. ناظم رشيد، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل/ العراق/١٩٨٩

٢- اشكال الزمان والمكان، باختين ميخائيل، ترجمة يوسف حلاق، دمشق،١٩٩٠.

٣- بول ريكور ... الهوية والسرد، حاتم الورفلي، دار التنوير للطباعة، بيروت/ ٢٠٠٩.

٤- الحياة الادبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، د. احمد كمال زكي، ط١، دار الفكر، دمشق/١٩٦١

٥- ديوان ابو نواس، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت/ ١٩٨٢.

٦- ضياع الهوية/ د. جورج قرم، مجلة العربي، ع (٥٩٦)، الكويت/ ٢٠٠٨.

٧- عن الهوية الحضارية والمشترك الانساني، صلاح سالم، مجلة العربي ع (٦٧١)، الكويت/٢٠١٤.

٨- في الادب العباسي، عز الدين اسماعيل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت/ ١٩٨٥.

٩- القاموس المحيط، للفيروز آياد، مك التجارية،مصر/١٩٥٤.

١٠- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق ابن عبد الوهاب ومحمد الصادق، بيروت/ د.ت.

١١- المسألة الطائفية ومشكلة الاقليات، برهان غليون، دار الطليعة، بيروت/ ١٩٧٩.

١٢- مسألة الهوية والعروبة والاسلام... والغرب، محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت/ ٢٠٠٦.

١٣- معجم البلدان، للشيخ الامام شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي، مطبعة السعادة، ط١، مصر/ ١٩٠٦

١٤- الهوية المكتسبة، ثامر عباس، دار الزمان ومكتبة عدنان، ط١، بغداد/ ٢٠١٢

الهوامش

(١) ينظر معجم البلدان،ياقوت الحموي ٥:٣٠٦ لم نجد (نواس) وانما نواش، حصن من حصون اليمن.

(٢) المصدر نفسه ٥: ٣٠٦.

(٣) ذو نواس: أحد حمير، دان باليهودية واحرق من لم يتابعه من لم يتابعه على دينه في الاخدود وقصته وردت في القرآن الكريم.

(٤) ينظر: في الادب العباسي، د. عز الدين اسماعيل ،والادب العربي في العصر العباسي، د. ناظم رشيد (١٥-١٨)

(٥) ينظر: قاموس المعجم الوسيط، للفيروز ابادي.

(٦) الديوان ٣٩٨.

(٧) ديوان ابو نواس ٣٠٥.

(٨)ينظر: مسألة الهوية العروبة والاسلام ... والغرب ٩١

(٩)الديوان ٢٢٠

(١٠)م.ن ٢٩٢

(١١)م.ن ٣٠٧

(١٢)الديوان ٤٠٤ – السنخ/ الاصل. مشمولة/ هي الخمر التي تعرض لرياح الشمال فتبرد.

(١٣)ينظر اشكال الزمان والمكان/ باختين ميخائيل/١٤

(١٤)الديوان ٣١٠

(١٥)الديوان ١١

(١٦)م.ن ١٠

(١٧)ينظر: عن الهوية الحضارية والمشترك الانساني، صلاح سالم ١٧.

(١٨)الحياة الادبية في البصرة ٥٣٨

(١٩)دراسات في الادب العربي بالعصر العباس ٧٧

(٢٠)مسألة الهوية، العروبة والاسلام والغرب، محمد الجابري ٩٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت/٢٠٠٦.

(٢١)الديوان ٥٥٧

(٢٢)ضياع الهوية العربية، د. جورج قرم ١٨، مجلة العربي، العدد (٥٩٦) الكويت/ ٢٠٠٨.

(٢٣)الديوان ٧

(٢٤)م.ن: ٤٠٠

(٢٥)الديوان ٤٠٤

(٢٦)م.ن ٤٦٨

(٢٧)بول ريكور الهوية والسرد ٣٤

(٢٨)ينظر: الهوية ولاسرد، حاتم الورفلي ٣٨

(٢٩)الديوان: ١٢

(٣٠)ينظر: بول ديكور والسرو ٣٩.

(٣١) الديوان ٣٦

(٣٢) م.ن ٥٢

(٣٣)م.ن ٣٠٥

(٣٤)م.ن ٤٧٥

(٣٥)ينظر :الهوية الملتبسة ناصر عباس٣٠.

(٣٦)ينظر: م.ن ٤٦

(٣٧)الديوان ٧١١

(٣٨)م.ن ٦٧٦

(٣٩)الديوان، ٦٨٠

(٤٠) ينظر: الهوية الملتبسة ١٣٢